الذكرى العاطـرة(*)

أما العيونُ فـطولُ الهجرِ يبكيهـا ... والـدمـعُ يلمـعُ درأً في مـآقيهـا
هوّنْ عليك فما تُجدي الدموع ولا ... تقضي لُبانةَ قلبٍ بـاتَ يبغيها[1]
ما أنت أولُ عانٍ في الغرام مضى ... يطوي الصحارى ويمشي في فيافيها
كمْ مغرمٍ ركبَ البيداءَ مِنْ وَلَـهٍ ... تمشي مـطيتُـهُ والشـوقُ حـاديهـا
القلبُ تضنيـه أهـوالٌ يكـابـدُهـا ... والـروح بالأمـلِ الخـابي يمنِّيهـا
يا راكبَ البيدِ في الليلِ البهيم أما ... طالَ السُّرى يا غريباً في نواحيها
تمشي تحث الخُطى والوجدُ مُستعرٌ ... والنفسُ فيهـا من الآلام مـا فيهـا
ليـلُ المحبين آهـاتٌ يـردِّدهـا ... نايُ الهوى، ولهيبُ الشوقِ يذكيها
فيـا نـديمـاً لنـا مـا زلتُ أذكُـرُه ... مذُ كانَ للكأسِ شأنٌ في لياليها
أيـامَ عشنا وكـان اللهـو ديـدنَنـا ... تمضي الليـالي أهـازيجـاً نغنيهـا
هاتِ اسقينها سُلافاً سائغاً عطراً ... فالنفس ظَمآي وكأسُ الراح ترويها[2]
آهٍ لتلكَ الليـالي كم مررنَ بهـا ... والبِشـرُ يعبقُ ريحـانـاً بنـاديهـا

(*) ألقيت في الليلة الختامية للاحتفال بذكرى ميلاد الرسول العظيم - ﷺ - في إنشاص يوم ١١ ديسمبر - كانون أول ١٩٥١. وأعيد إلقاؤها في الحفل الذي أقيم بالمعهد الديني يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥١ بحضور سعادة مدير الشرقية «اللواء صادق الملا» وفضيلة شيخ المعهد «فضيلة الأستاذ إمام حسين». وكبار رجال التعليم والبوليس وأساتذة المعهد وطلابه.

(١) اللبانـة : الحاجـة.

(٢) السلاف : ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر وتسمى الخمر سلافاً.

عهدُ الأحبة حيَّتكَ المُنى وسقى ... أيـامَكَ الغـرَّ فيضٌ منْ غواديهـا
ماذا عن الصحب في تلك البلادِ مضوا ... أمْ لا يـزالـونَ سُمّـاراً بـواديهـا؟
لي في ربوعِكِ يا أرضَ الحجاز وإن ... شطَّ المـزارُ لبـانـاتٌ أُرَجِّيهـا[1]
لقد ذكرتُ بكِ الأحبابَ فانبعثت ... ذكرى الرسولِ فقمت اليوم أحييها

* . * . * . * . *

هذا هو الكونُ في ديجورِ ظلمتِهِ ... يحكي ذئـابـاً وشـاةً نـامَ راعيهـا
فـذو العشيـرةِ والأنصـارِ تـرهبـهُ ... كـلُّ البـريـةِ: قـاصيهـا ودانيهـا
يسطو على الحقِّ لا قانونَ يمنعُهُ ... ولا شريعةَ يخشـى بأس قاضيها
أمـا الضعيفُ فمغبونٌ وليس لـه ... في الأرضِ عونٌ يقيهِ شرَّ باغيها[2]
والكلُّ يشربُ كأسَ الإثمِ في طربٍ ... وينثني حين يـأتي مُنكـراً تيهـا
كانتْ مآثمُهُم في عُـرفهم مَرَحـاً ... والقتلُ في شرعهم قد كان ترفيها
هـذي مبـادؤهم أيـامَ دولَتِهـم ... الـزورُ ينشُـرُهـا والإثمُ يُمليهـا
حتى أضـاءتْ بمـولـودٍ لآمنـةٍ ... أرجـاءُ مكـة وانجـابتْ دَيَـاجيهـا
ومنْ تتَبَّـعَ تـاريـخَ الهـداةِ رأى ... فيـهِ الجلالـة في أسمى معانيهـا
ففي الـطفولـةِ يَلقى ما يمجـدُها ... وفي الـرجولـةِ يلقى مـا يُـزكيهـا
وخذْ حديثَ الأُلى في مكة احتكموا ... إلى الأمين قـويِّ النفسِ عاليهـا
لما أتَوا كعبـةً بالبيتِ واجتمعـوا ... كي يودِعوا الحجرَ الأزكى مبانيها
وكـلُّ طائفـةٍ قـدْ قـالَ قـائلهـا: ... أن ليسَ تـرفعُـهُ إلا أيـاديهـا
وأوشكتْ أن تقومَ الحربُ بينهم ... والويلُ للقومِ إن هبَّتْ سوافيهـا
فـأرسـلَ اللهُ حقنـاً للدمـاءِ فتىً ... أنْعِمْ بحكمتِهِ إذا كان يُبـديها[3]

---

(١) لبانـات : حاجـات.

(٢) الأبيات السابقة تصور حالة العرب قبل الإسلام. مغبون: مظلوم والباغي : الظالم.

(٣) إشارة إلى احتكام قريش إلى رسول الله ﷺ قبل البعثة في وضع الحجر الأسود، ورضائهم بما حكم.

فما مضى عنهُ فـردٌ كانَ مُكتئبـاً إلّا مضى مُطمئن النفس راضيها

* . * . * . * . *

منْ ذا الذي قد سعى ليلاً إلى جبلٍ ببـطنِ مكةَ لمـا نامَ سـاريهـا[1]
وقـرَّ في غـارِهِ عينـاً بـوحـدتِـهِ يستلهمُ الله إرشـاداً وتنبـيهـا[2]
هذا الأمين رأى أن الضلالة قد أعمتْ لحاضرهـا قلباً وبـاديها[3]
فراح ينشد في كهف الرشاد سنىً من حكمةِ اللهِ يُولي القلبَ توجيها
حتى أتى الوحيُ بالإسعادِ مُقترناً يدعو الشعوبَ إلى التقوى ويهديها
وجـاءَهُ الـذكـرُ تبيـانـاً ومُعجـزةً منوِّهاً بجـلالِ اللهِ تَنـويـهـا[4]

* . * . * . * . *

ما بال قومٍ بدارِ الندوة اجتمعوا وجوهُهُم شُوِّهت بالكفر تشويها[5]
يقولُ قائلهم ـ والغيظ يقتلُه ـ : يا قومِ قد قام للأوثانِ مُخزيْها[6]
يَسُب آبـاءَنـا جهـراً ويلعَـنُهـا ويـوسِعُ الـلاتَ تقبيحـاً وتسفيهـا
لا بـدَّ من قتلِهِ في عُقرِ منـزلـه حتى يعودَ لدِّينِ العُرب صابيها[7]
هم للشريعةِ كادوا كيدَهم ونسوا أنَّ الإلـه من الآفـاتِ حـاميهـا
اللهُ أكبـرُ قـد شَـاء النجـاةَ لهـا لما نجا في ظلامِ الليلِ مُحييها

* . * . * . * . *

---

(١) الساري : السائر ليلاً.
(٢) إشارة إلى تعبد رسول الله ﷺ في غار حراء قبل البعثـة.
(٣) الحاضـر : أهل الحضر الذين يسكنون البلدان والمدن. البادي: الذي يسكن الباديـة.
(٤) الذكـر : القرآن الكريـم.
(٥) إشارة إلى تآمر قريش على قتل رسول الله ﷺ.
(٦) مخزيها : أي يسفه الأصنام ويرفض عبادتهـا.
(٧) الصابىء : الذي خرج من دينه إلى دين آخـر، وكان الجاهليون يقولـون عن المسلمين «الصباة».

منْ بعدِ ذلك قالَ السيفُ قولتـه ... في يومِ بدرٍ فباتَ الشركُ واعيها
وأصبحتْ دولـةُ الأوثـانِ عـاجـزةً ... عن النضـالِ وقدْ دُكَّتْ أعـاليهـا
والحق إنْ صنتَه بالـرمح تسمَعُـه ... كل الشعوبِ وتصحو عينُ غافيها
حتى إذا كانَ يومُ الفتحِ واكتسبت ... فيه الشريعـةُ نصراً قـالَ داعيها:
قم يا بلال على البيتِ الحرام وقل: ... إن الضلالةَ أشقتْ نفس أهليهـا
أذِّنْ فقد جاءَ نصرُ الله وانعِ لنا ... جندَ الفسادِ، فأنتَ اليوم نـاعيها

* . * . * . * . *

يا ربِّ أرسلتَ طه بـالرشـادِ لنا ... كذي يستقيمَ شقيُّ النفسِ غاويها
وجـاءَ للنـاسِ والأفهـامُ مُجـدبَـةٌ ... لينبتَ الهـديُ نوراً في أراضيهـا
فاخذذل قوي الشرِّ، إن الشرَّ مضيعةٌ ... لبهجـةِ الكـونِ يـأتينـا فيفنيهـا
وضـربةٌ منـكَ خيرٌ في نتـائجِهـا ... من ضـربةِ لفتى التحـرير يـأتيها

* . * . * . * . *

يا ربِّ هب من لدنكَ الخيرَ واقض لنا ... بـرحمةٍ منـكَ عند البـأسِ نُلقيها
إن الحنيفـة قـد بـاتت مُهـددَّةً ... بالموتِ صبراً، وعطفٌ منك يُنجيها
فاكتبْ لنا النصرَ حتى نستعين به ... في جعلِ حاضرها يسمو كماضيها
وصلِّ يا ربِّنا أزكى الصلاةِ على ... منْ جـاءَ بالحقِّ لـلآثامِ يُـرديها
محمـدٍ سيـدِ الكـونين شـافِعنـا ... يـومَ القيـامـةِ إنْ نـادى منـاديهـا

* . * . * . * . *